الفصل الأول

نفسية الشاعر كما تتمثل فى شعره

ليس من العسير أن نهتدى إلى نفسية الشاعر من شعره ، فقد كان التيجانى فى معظم شعره صادقا يعبر عن واقع حالته النفسية أصدق تعبير، نعرف ذلك من حرارة الشعور التى تشع من عبارته ، ومن دوران الفكرة المعبر عنها فى أكثر من موضع من شعره أحيانا .

والعل أول ما يلفت النظـــر أن التيجانى كان مولعا بالقراءة ، والاطلاع ، فى الفلسفة ، واللغة ، والأدب ، والدين . وأغلب الظن أنه كان يمعن النظر فيما يقرأ ، ويعرف كيف يتمثله ويستفيد منه ، ويديره فى ذهنه يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . ومن ثم اتسع أفق تفكيره ، وتفتح ذهنه على حقائق تتعلق بالحياة والوجود .

أضف إلى ذلك إحساس التيجانى المرهف ، وشعوره الدقيق ؛ وبعض الناس يعرفون منذ نشأتهم الأولى برهافة الحس وسرعة الانفعال وحدة الشعور ؛ لا تمر الكلمة العابرة أو الاشارة الخاطفة على مشاعرهم اللينة المرهفة ، حتى تحدث فيها أثرا ، فترضيهم أو تسخطهم ، وتفرحهم أو تحزنهم ، وتشرح صدورهم أو تبعث فيهم الانقباض والكآبة . وهؤلاء لا يستطيعون أن يعيشوا على هامش الحياة ، أو أن يتخلوا فى سهولة ويسر عن مشاركة الناس آلامهم وآمالهم ، مآسيهم ومباهجهم ؛ يعنون بكل ما يقال ، وكل ما يفعل ؛ ويشعرون مع الشاعرين ، ويذهبون

بمشاركتهم العاطفية مع الناس كل مذهب ، فاذا الحياة عليهم عبء ثقيل ، وشغل شاغل . لا يرتاح لهم بال إن وجدوا فقيرا يتأوه جوعا ، أو مريضا يتلوى ألما ، أو مواطنا يتشكى ظلما ، أو جماعة تصطنع الكذب والرياء .

لم يقف التيجانى من المجتمع الذى يعيش فيه موقف المتفرج الذى لا يكترث ، والمتطلع الذى أقام بينه وبين مسرح الحياة حاجزا منيعا ، بل كان لا يستطيع أن يسد أذنيه ، وأن يغطى عينيه دون ما يضطرب تحت سمعه وبصره . كان إحساسه وانفعاله أشد إرهافا وتأثرا بما حوله مما يكون عادة لسائر الناس .

هذا شاب ثقف نفسه ، ووسع مداركه ، وأوتى رهافة الحس ، فاستطاع أن يوغل إلى باطن الحياة ، ويفهم كثيرا من أسرارها . والحياة لمن يتعمقها ، ويفهمها حق الفهم ، ليست إلا سلسلة من المتناقضات ، وألوانا من المفارقات . فهى للرجل المتطلع إلى مُثُل عليا ، شىء مقلق للراحة ، لا يزيدها التأمل فيها إلا سخطا عليها وتبرما بها .

وكلما ازداد الشـــاعر فهما للحياة والأحياء ، ارتفع بعقله ، وسما بروحه على الناس كما يرتفع الطيار بطائرته فيرى من تحته عوالم صغيرة متشابهة لا يكاد يبين من أمرها شيئا ؛ وهذا ما انتهى إليه التيجانى ؛ خبر دخائل الناس وظواهرهم ، وتجلت له كل يوم صور من المتناقضات كانت تزيده ضيقا على ضيق ، وتبرما بالحياة على تبرم . وما لبث أن اتسعت الهوة بينه وبين الناس ، وجعل يسمو بنفسه عليهم ويشرف منهم على مخلوقات صغيرة متشابهة لم يتح لها الزمان أن تتطور فى مدارج الرقى العقلى والنفسى . وربما كان الناس سادرين فيما هم فيه ، غافلين عن

هذه العين الناقدة التى تقف لهم بالمرصاد ، وتنظر إليهم فى اعتداد وكبرياء .

يتجلى هذا فى شعر شاعرنا ، حين يتحدث عن الناس أو يتحدث عن نفسه . فهو يرى أنه أديب نابغ ، نسيج وحده ، له قلم سحرى ، ونفس حرة طليقة ، وعقل كبير نفاذ . هو درة ثمينة ، لا ينبغى أن يقبر عند الموت إلا فى صدفة لائقة به ، وأن يسكب الدم على قبر النبوغ هذا الذى سيثوى فيه :

وصُغ له الأصدافَ قبرا فما ... يستبطن الدرةَ غير الصدف
واسكب على قبر النبوغ الدما ... وانثر على قبر الشباب الطرف

وكم كان يضيق بؤلاء الناس الذين لا يقدرونه حق قدره ، حتى أضاعوا بينهم نبوغه ، وهدروا شعره ، ألا يعلمون أن شعره قيثارة الجديد وسجل الحياة :

يا أديبا مضيعا من بنى الدنيا ... بحسب الأديب محض انتجاعه
أنت يا رائد القريض وما أنـ ... ـت بسقط الورى ولا من رعاعه
أنت قيثارة الجديد ، بك اسـ ... ـتظهرَ مَنْ فى الوجود سِرَّ متاعه
أدبٌ ملؤه الحياة وشعر ... مفعم بالسمو فى أوضاعه
ضاع ! ويح الذى يغار على الشعـ ... ـر وويح الأديب يوم ضياعه !

لعل مثله الأعلى ذلك الفيلسوف الذى يمشى عارى المناكب ، مرتديا ثوبا خلقا ، مشرد النفس لا مال لديه ، ولا جاه ؛ يعيش فى الدنيا بجسمه ،

ويعيش فى العالم العلوى بعقله وروحه ؛ له فى سماء الفكر صولة وجولة .

عارى المناكب فى أعطافه خلق من العطاف قضى إلا بقاياه
مشى على الجبل المرهوب جانبه يكاد يلمس مهوى الأرض مرقاه

هذا الجبل الهائل المخوف يكاد يتصدع فرقا من هذا الفيلسوف الذى يمشى عليه ، فتلمس قمته الأرض خشوعا وهيبة ؛ وكيف لا ، وهذا الجسم الناحل الشاحب إنما يحمل عالما روحيا ضخما لا قبل للجبل به ، ورسالة من لدن قوة هائلة جبارة :

منبأ من سماء الفكر ممسكه على الرسالة يمناه ويسراه
أوفى على الأرض مأخوذا وطـــاف بها مشرد النفس لامال ولاجاه

أحب الشاعر هذه النزعة الصوفية واتخذها مثله الأعلى ، نزعة الزهد فى المظهر والتطلع إلى المعانى والأفكار السامية . ومما زين هذه النزعة له ، فيما يبدو ، أنه كان ، فيما نفهم من شعره ، فقيرا . ولم يكن فقره أول الأمر إلا صدمة من صدمات الحياة التى صادفته ؛ فإن شابا كالتيجانى ، واسع الإدراك ، مرهف الحس ، دقيق الشعور ، لا بد أن يكون من الطموح والرغبة بحيث أحس إحساسا قويا بأن فقره يقف حائلا دون مآرب كثيرة كان يود لو تتحقق ، الأمر الذى جعله يحس إحساسا قويا بضيق ذات يده وبقيمة المال فى يد غيره ، فثار حقدا على هؤلاء الذين يكنزون الأموال والثروات ؛ وأصبح موقفه من الحياة موقف المتصوف الذى أحب أن يقنع نفسه أولا ويقنع الناس بعد ، أن الثروة إنما هى ثروة الآمال ، والحب ، والجمال لا ثروة المال ، والدور والضياع .

ما فى ثراؤك من ذخر ولا مال فاستبق دنياك حسبى كنز آمالى

المال شيء لا قيمة له ، وليس أمتع ولا أزخر من حياة كلها أحلام معسولة ، وخيالات عذبة ، وأفكار سماوية ، والحب هو الينبوع الثرى الثراء الذى لا ينضب معينه ، يلبى نداءك إن ناديت ولا يخلف لك وعدا ما حييت ، ولا يماطل كما يماطل الناس .

ولى فى كنوز الحب سلوى ورغبة ... بحسبى لا تُخلف لديه ولا مطل
وحسبى ما أثريت منها وإننى ... ليصرف نفسى عن نضاركم شغل

فليس لدى الشاعر من الصبر والجلد ما يستطيع به أن يحتمل خلف هذا ، ومطل ذاك ، لا يكاد تعترضه صدمة ، مهما صغرت ، حتى ينطوى على نفسه ، ويتكمش على أحلامه وخيالاته . ومثل هذه الحالة منشؤها فيما يقال ضعف فى الإرادة لا يمكّن صاحبها من مواجهة الصدمات والصعاب ، ولا يؤتيه المقدرة على مواصلة البحث فى عالم اللحم والدم .

وهذا فيما نظن منشأ النزعات الصوفية فى الشرق قديمها وحديثها . ويحسن أن نشير هنا إلى أن التصوف يكون فى الأدب كما يكون فى الدين ومنشؤه واحد . والظاهر من تتبع تاريخ التصوف أنه يزدهر فى المناطق الحارة بنوع خاص حيث رهافة الحس ، وحرارة الشعور ، وغير ذلك مما يدفع إليه المناخ من قلة الصبر ، والميل إلى الدعة .

وإذا أردت أن تعرف نظرة التيجانى إلى (الإنسان) فاسمع هذه الأبيات ، من قصيدة عنوانها (طفل) :

تبـــارك الذى خلق ... من مضغـة ومن علق
سبحـــانه مصـــوراً ... من حمأة الطين حدق

شق الجفون السود واستـــــل من الليـل الفلـق
واستخرج الانســـان من محـض رياء وملـق !
بث القـوى فيه دما أحمر أو عظمـــاً يقق
من عـــدم لعـــدم ومن عنـــاء لرهق !
سبحـــانه كم ألهـم العقـل جنونا وحمـق !
يشك ما يحيـــا وإن أشفى على الموت فرق !
رمى بهـذا الطفـل فى الـــــأرض ومن ثم رزق !
رمى به فى موكب الد نيـا مثـــالا للقلـق !

هذا الإنسان المسكين قد خرج إلى الدنيا من العدم وسينتهى إليه ، ليست حياته إلا سلسلة طويلة تبدأ بالعناء وتنتهى بالرهق .

من عـدم لعـدم ومن عنـاء لرهـق

هذا البيت الذى يلخص تاريخ الإنسان كله بروح متشائمة ، فلا يعترف الإنسان بهذا الوجود الذى يكون بين العدمين ، ولا يقف عند راحة ما يذوقها المرء بين عنائين. بل لا أدل على تشاؤمه من هذا البيت.

واستخرج الإنسان من محـض رياء وملـق

تلك الفكرة التى يرددها فى موضع آخر إذ يقول :

قلت وهل فى الحياة مضطرب إلا لأهل الرياء والكـذب

بل لقد رمى سبحانه هذا الطفل المسكين فى زحمة الدنيا ، واضطراب الحياة ، وصخب الوجود ، رمزاً للحيرة ، ونموذجاً للقلق .

على أنه ينبغي أن نشير إلى أن تشاؤم الشاعر لم يطغ على إيمانه بالله، فهو في الأبيات السابقة يلعن العقول المجنونة الحمقاء التي تشك في قدرة الله أو في وجوده ، حتى إذا قدم أحدهم الموت ثاب إلى رشده ، وارتعدت فرائصه . فالتيجاني هنا ، وفي شعره كله ، مؤمن بالله ، برغم ما في نفسه من قلق وسخط وتشاؤم .

على أن التيجاني قد أطبقت عليه هذه المتاعب ، واصطلحت عليه الهموم وهو بعد شاب في مقتبل العمر . لم ينقض العقد الثاني من عمره حتى رأى أن بين جوانحه نفساً قد طعنت في السن ، وأثقلت بالتجارب، وحطت عليها أعباء مضنية . وإن شاعراً يقول :

نهلتْ من دمى الحوادث واستر وى يراعي مما يدفع دَنّى

لجدير بأن يكون شيخاً هماً ، ليس شاباً في عنفوان الشباب .

ولا شك أن التيجاني كان يحس بثقل الحياة ، وكان يشعر أنه يحمل بين جنبيه ما لا يطيق ، لهذا طالما التفت التيجاني إلى ذكرياته الحلوة أيام أن كان خلي البال ، فارغ القلب ، خفيف العبء ، أيام الصبا التي كان يحلو للتيجاني أن يستعيدها من حين لحين ، فيرى الفرق بينها وبين أيام شبابه شاسعاً بعيداً . فما كان أحلى لديه من مفهوم الحياة في ذهنه وهو صبي ، حين كان يرى الحياة كلها تتركز في قطعة من الطين ، يعجنها بين يديه ثم يبني بها ما يشاء ويهدم ، فرحاً مستبشراً ، أو تتركز في أكوام من الحصا ، يشيد بها قصوراً ، ويقف أمامها معجباً بصنع يده ، مزهواً بجمال فنه ، وما كان يعرف يومئذ من وطنه إلا نفسه ، وبعض

الصبية أو الصبايا الذين كان يلعب معهم ، وبعض الدمى والتماثيل التى كان يتسلى بها :

ثورة للشباب يبسأ مراعيـــــه وما كالصبا أقر لعينى
يفرح الطين فى يدىّ فألهو جاهداً أهدم الحياة وأبنى
كم أشيد الحصا قصوراً وكم أكبر من شأنها وأقدر شأنى
وطنى فى الصبا الدمى والتماثيـــــل ونفسى، ومن أحب، وخدنى

هذه الأيام الحلوة التى يندم الشاعر على فراقها ، وعلى أنها مرت واستقرت فى الماضى المجهول ، وهو جاهل بقدرها ، غير حافل بها ، غير آسف عليها :

حتى إذا ما استقرت فى مخابئها رجعت أسأل عن آثارها الأبدا
طوى شبابى ذكراها على ألم وسوف تخلد إن مات الشباب غدا

على أن التيجانى - رغم سخطه وتبرمه بالحياة والأحياء - لم يكن شريراً ، ولا سيء الطوية ، ولا ميالا إلى الطعن والسباب . كان طيب القلب ، محباً للخير ، لا تكاد ترى فى ديوانه هجاء . أو أثراً للخبث وسوء النية . أما ثورته ونقمته ، وتبرمه ، فقد كان دائماً ، منصباً على الحياة بوجه عام ، وعلى الناس بوجه عام لم يقصد به فرداً أو جماعة . وربما يستوقف القارىء فى ديوانه قصيدة عنوانها ثورة ، توهم أبياتها أنها ثورة على طبقات معينة من الناس ، على هؤلاء النازحين من أوطانهم من اليونان ، والأرمن الذين استقروا فى بلاده ، واستدروا منها خيرها ، وجنوا منها الثراء العريض ، ثم بطروا وتكبروا :

قف بنا نملأ البلاد حماساً ونقوض من ركنها المرجحنّ
هى للنازحين مورد جود وهى للآهلين مبعث ضنّ
يستدر الأجانب الخير منها والثراء العريض فى غير منّ
أبطرتهم بلادنا فتعالى ابن أثيـــنا واستكبر الأرمنى

ولكن التيجانى هنا مدفوع بنزعة وطنية قومية ، ثم هو فى هذه القصيدة ذاتها لا يرضى من نفسه أن يثور هذه الثورة ، ويعد ثورته (قذائف رعنا) وتجنيا ، كأنه يعتذر :

ويل هذا الأنام من قلبى البـــاكى وويحى مما يجر التجنى
إنها ثورة الحياة فمن للـــكون يحميه من قذائف رعن

ثم تراه يلعن هذا الشباب الذى دفعه إلى هذه الثورة ، ويستعيد أيام الصبا الحلوة التى يؤثرها ويستعذبها .

انتهى الأمر بالشاعر - إذن - إلى السخط على الحياة ، والأحياء ، تلك النهاية التى صار إليها أكثر الشعراء المجيدين .

ولكن كيف تأتى لهؤلاء الشعراء الساخطين على الحياة أن يواصلوا حياتهم ، وأن يرتضوا البقاء فى سجل الأحياء .

هذا إنما نلتمس الجواب عليه فى هذا (المتنفس) الذى يخلقه الشاعر لنفسه ، فلا بد لكل منهم من منفذ أو منافذ يتنفس منها الحياة ، ولولا أنهم كانوا يخلقون لأنفسهم متنفسات ومنافذ يتنسمون منها نسمة الحياة ، ويفزعون إليها من قسوة الواقع ، لما بقوا فى الحياة لحظة

واحدة . ولقد تنفس التيجانى ، فى حبه للجمال بمظاهره المختلفة ، فكان ذلك سلواه وعزاءه ، وفسحة أمله .

والذى يتصفح ديوان التيجانى (إشراقه) سيرى من النظرة الأولى مدى تعلق الشاعر بالجمال ، وفى رأيى أن الشعر الجدير بالنظر والتقدير فى ديوانه إنما يتجه أكثره إلى التغنى بنفحات الحب والجمال فى مظاهره المختلفة :

(١) الجمال البشرى .

(٢) الجمال الإلهى .

(٣) الجمال الطبيعى .

وهكذا عاش التيجانى بين حب للجمال ، وسخط على الحياة والأحياء حتى أصبحت نفسه مجالا لعواطف قوية متضاربة ، ولكنه مع ذلك ، ظل يتغنى كالطائر الغرد ، وينفس عن نفسه حراً من كل قيد ، لم تشب نفسه شائبة من فساد أو رياء ، ولئن فخر التيجانى بتلك النفس التى كان يحملها بين جنبيه ، فهو جدير بهذا الفخر :

هى نفسى من الندى قطرات ... لم تنلها يد الزمان بخلط
هى فى صفحة الشباب قوى تز ... خر بالحب أو تموج بسخط
هى قسطى من السماء ، فما أضيع فى العالم الترابى قسطى